الدافعية الإنسانية في فكر جوزيف نوتان

د. محمد بالرابح
أستاذ بقسم علم النفس
جامعة وهران – الجزائر

يعد **جوزيف نوتان** J.Nuttin من روّاد الفكر الدافعي في العالم، وفي الدول الناطقة باللغة الفرنسية على الخصوص، فقد وقف حياته لدراسة الدافعية الإنسانية نظرياً من خلال مراجعه المعتمدة، وعملياً من الجانب التطبيقي، بفضل إنجازات مركز البحوث لدراسة الدافعية، الذي أنشأه بالجامعة البلجيكية العريقة **Louvain**، مما أضفى على أعماله قيمة علمية جديرة بالاهتمام. وهذه ترجمة لنصوص مختلفة من كتبه، تبرز وجهة نظره في الدافعية الإنسانية.

والواقع أنّ الدافعية كانت موضوع اهتمام العديد من الدارسين والمنظّرين الغربيين الذين أثبتوا بشأنها نظريات فاقت الأربعين[1]، من مختلف المناهل والأصول، حيث تمحورت كلّها لاستكشاف العلّة في السلوك الإنساني، وتحديد المسبّبات والعوامل المؤثّرة في توجيه السلوك الدافعي؛ فهناك من النظريات ما تستمد مبادئها من فكرة التعلّم، وأخرى من مفهوم الوجدان أو الانفعال، وبعضها تركّز على أهمية النتيجة الاجتماعية، كما انبثق عن التفسير الديناميكي، العديد من النظريات؛ حيث يعتقد R.S.Woodworth أنّ الدوافع، تُشْبَع عن طريق النشاط الاستهلاكي والاستعدادي، ويفسّر أصحاب النظرية الوظيفية، الدافعية في إطار التفاعل المستمر لدى الكائن الحي، تحقيقاً للاتّزان؛ كما يركّز G.W.Allport على تدرّج الدوافع، خلال مراحل النمو الفردي، أمّا A.Maslow فيعالج الدافعية في شكل تسلسل هرمي لحاجات الفرد، كما وضع E.Vroom نظريته في التوقّع والتفضيل، متأثراً بعلم النفس الإدراكي. وتساهم

---

[1] Lieury. A & Fenouillet, F. **Motivation et Réussite Scolaire**, Dunod. Paris, 1997, p 2.

العقائد الحضارية والدينية والتربوية في صقل الدافعية الإنسانية وتنميتها، وبالأخص في ازدياد دافع الإنجاز لدى أفراد المجتمع، وذلك ما لاحظه Max Weber من تأثير المذهب البْروتِسْتاني في تطوير النمو الاقتصادي وتحقيق الرفاهية لدى شعوب كلّ من أوربا الغربية وأمريكا الشمالية، الذين يضعون النجاح الشخصي نبراساً لحياتهم ودافعاً لسلوكهم؛ وحذا حذوه Mc clelland الذي اتّخذ من دافعية الإنجاز وسيلة لتحقيق النماء الاقتصادي، مدعّماً رأيه بوقائع تاريخية، وبخاصة عصر الازدهار الذي ساد مدينة **أثينا** الإغريقية خلال القرن الخامس قبل الميلاد، وما عرفته من هزائم على يد **اسْبَّارطة** Sparte، إثر غياب دافعية تأكيد الذات لدى الأثينيين.

أما جوزيف نوتان، فيجنح إلى معالجة الدافعية من منظور التنافر المعرفي (Dissonance Cognitive) انطلاقاً من ثبات دينامية الفعل ضمن الحاجة نفسها، وعدم استقرارها بين تنافر الموقف الحالي والهدف المطلوب[1]، وفقًا للمفاهيم التالية :

أولاً: الدينامية المعرفية Dynamisme Cognitive

القائمة على ربط علاقة وظيفية بين الفرد والبيئة، باعتبار أن لكلّ منهما بُنْيَته الخاصة؛ وإن كان تفاعلهما يخضع للخبرة والتكيّف والنجاح والفشل، ويأخذ صوراً مجسّدة؛ بحيث تمثّل المجموعة الثّابتة، نماذج لتفاعلات الفرد مع بيئته وتستجيب لاحتياجاته وتساهم في توازنه، مما يضفي على الدافعية تفاعلاً رضائيًا، ذا اتّجاهات فطرية وتجريبية وموقفية[2]. كما تمثّل الدينامية المعرفية همزة وصل بين الإنسان والعالم، باعتبارها المؤثّر القوي للسلوك الإنساني، خاصة لما تُمثّله حاجتا التعرّف والإدراك، من قوة.

ومن ثَمّ، تظهر الدافعية كعلاقة بين السّعي الخفي للشخص، والموضوع الذي يَحُثّ

[1] J.Nuttin, **Théorie de la motivation Humaine**, Presses Universitaires de France, Paris, 1985, p 281.

[2] Mucchielli, Alex, **Les Motivations**, Coll. Que sais-je? Puf, Paris, 1992, pp 21-22.

المصلحة المُستَتِرة؛ فمثلما يحتفظ الإنسان بحاجاته ضماناً لبقائه، فكذلك حاجات المحيط، هي الأخرى تستدعي الإشباع. ففي اعتقاد عالم النفس الألماني Karl Buhler (1879–1963) المشهور بأبحاثه في سيكولوجيتَيْ الانتباه والإدراك– أن الطفل لا يهمّه المثير الفيزيقي، بقدر ما يلفت انتباهه تغيّر المحيط[1]. فكما أنّ الإنسان يصبو إلى الاتصال الجماعي والاحترام، فإنه يحتاج أيضاً إلى الطاقة، فالطفل يُفضّل الحنان على التعلّم، وهو ميل فطري، شبّ عليه الإنسان وترعرع، بحسب تعبير **ولْيام جيمْس**؛ وتمثل هذه الدينامية، فعالية القوة أو الدافعية للعمليات الذاتية، التي تساهم في النمو؛ فاندماج الكائن الحي ضمن الوسط الاجتماعي، يجري على نحوٍ تفاعلي؛ إذ لن يتسنّى له فهم المحيط، إلا إذا أَمَدّه بالإحساسّ المطلوب، وكان قابلا للإدراك، وقد أكّد ذلك A.Einstein (1879–1955)، بأن سرّ العالم يكمُن في درجة إدراك معقوليته ومفهوميته، فليس بمقدور العالم الفيزيائي أو النفساني، التحكّم في السلوك، ما لم تتمّ له السيطرة على الأشياء.

ثانياً: المنظور الزمني

يتحقّق فهم نظرية **نوتان** من خلال المنظور الزمني La perspective temporelle بأبعاده الثلاثة، ماضيه وحاضره ومستقبله، وكذا صفاته الأساسية، مثل العمق والاتّساع والشّدة والبناء من جهة، والاتّجاه الزمني والتوجيه السائد نحو الأبعاد الزمنية من جهة أخرى. فالعمليات النفسية المختلفة، كالتفكير والإدراك والتوقّع، وُجدت لِتُلازمَ العملَ الإنساني بأنواعه، فكثيراً ما تتماثل حادثتان متباعدتان زمنياً، لتشابه الوقائع، مما يتعيّن ضبط المنظور الزمني بمدى تأثيره على السلوك المعرفي، بين الحال والمآل، في صورة ترقّب، يَحْدث خلال تعاقب الأحداث؛ حيث يشكّل الماضي أساس بناء المستقبل، وذلك بفضل الذاكرة التي أشاد Fraisse (1967) بوظيفتها، في إعادة ترتيب تعاقب التغيّرات المعيش فيها، وتوقّع التبدّلات المرتقبة؛ فضلاً عن عملية الانتباه، كحالة تأهب أو نشاط، نتيجة الإثارة أو الحاجة. وهكذا تُساهم العمليات النفسية

[1] Nuttin, J, 1985,Op.cit, pp 142-148.

في تشكيل الدافعية غير المشبعة، التي تُوجّه العضوية من المرحلة الراهنة نحو الغد القريب؛ عكس الدافعية المشبعة أو المتعة التي تشد الفرد بالحاضر؛ ومن ذلك كان لزاما ألا يسبق المثير اللاّإشراطي (الغذاء) المنبّه الشرطي، إذ لو قُدّم الطعام أوّلاً للحيوان، وأُشبِعت حاجته، لتعذَّر التحكّم في توجيه سلوكه، ومن ذلك أمكن اعتبار التوجّه نحو المستقبل، نتيجة جديدة وصورة مصحِّحة للماضي. وتجري عملية الانفصال التدريجي بين الغد واليوم، بفضل وتأثير النموّ العالي للوظائف المعرفية، على ظهور الحاجات. ومن ذلك، يشكّل كل من التوجّه الاستشرافي وضبط المتغيّر الزمني، موضوع الدافعية بسلبياتها وإيجابياتها، كما تكشف الأحداث، وكذا المظاهر الفيزيقية والبيولوجية عن الصّورة الحاضرة والمستقبلية التي يعيشها كل فرد[1]؛ ويضمن تحقيق توازن البُعديْن السابق واللاحق، فعّالية الوظيفتين الأساسيتين للنشاط الإنساني، والمتمثلتين في الاحتفاظ بالماضي والبناء للمستقبل؛ مما يؤكّد وجوب ربط أبعاد الرُّؤَى الزمنية بالدافعية، لما تضفيه على الأحداث المعيش فيها من وجدان واهتمام[2].

ثالثاً: الدافعية الباطنة والظاهرة M.Intrinsèque & Extrinsèque

يرى **نوتان** مساهمة جملة من العوامل الموقفية والشخصية والفيزيقية والفزيولوجية في تحديد الدافعية، سواء في الظاهر أو الباطن، بحيث تستمد الدافعية الباطنة قيمتها من طبيعتها الخاصة، المنبعثة من ذاتية الفرد، الذي يُفضّل شيئاً بُغية إنجاز العمل، كمن يلعب من أجل متعة اللعب؛ بعكس الدافعية الظاهرة، التي تبرُز للعيان، بمجرّد دفع الإثارة الخارجية الفرد للقيام بعمل، يهدف إلى تحقيق غاية، كالذي يلعب لاقتناء المال، أو كمن يبحث عن صُحبة شخص بُغية التعرّف به، أو بغرض الاطّلاع على معلومات عن الحي، فيقال إنّ هدفهُ داخلي جوهري، في حين أن الشخص الذي يأمل من وراء الصّداقة تحقيقَ ترقية، فإن قصده خارجي ظاهر، مثل الطالب الذي يُثابر على دراسة علمٍ للحصول على شهادة؛ مما يؤكّد فكرة اعتبار

---

[1] Nuttin, J, **Motivation et prespectives d'Avenir**, Presses Universitaires de Louvain, Belgique, 1980, pp 9-18.

[2] Ibid, 1980, pp 34-35.

السلوك نمطاً من أنماط الاندماج في علاقة بالموضوع. وتَمكُث الدافعية باطنة، مادامت تعمل على توطيد العلاقة مع الغرض الداخلي، كالسماع للموسيقى أو التعلّق بشخص؛ ويصدُقُ قول المستشار B.de clairvau (1090–1153): «لا تحتاج المودّة لأي سبب أو مكافأة، فالجزاء هو الودّ نفسه، والإنسان محبّ بطبعه». ونظراً لقدرة استيعاب الدافعية لأي نشاط يدركه الفرد، فقد حَظِيَت بالاهتمام البالغ وتوسعّت لترتَبِط بالنموّ الذاتي للشخصية[1].

رابعاً: منهج الاستقراء الدافعي Méthode d'Induction Motivationnelle

وضع **نوتان** طريقة نوعية لقياس الدافعية أطلق عليها باختصار (ميم) La Mim[2]، وهي تقنيّة لقياس الأبعاد الزمنية والمجالية والإرشادية، في اختبار إكمال الجمل، للوقوف على الظروف المفضّلة والمقبولة لدى الشخص، باستخدام كُرّاستين صغيرتين بحجم 10×6 سم، يتضمّن الدفتر الأول 40 كلمة إيجابية، في ضمير المتكلّم المفرد، كقوله: أَرْغَبُ أو أَوَدّ أن...؛ أمّا الدفتر الثاني، فيحتوي على 20 كلمة نفي، كتعبير: أخاف أو أعارض، بحيث يدلّ الفعل على رغبة الشخص أو نفوره؛ ويبادر المفحوص إلى إكمال الجملة، بالكتابة على كلّ صفحة، موضوعاً عن دافعيته الشخصية؛ ويجري تحليل المضمون الدافعي، بمعالجة مختلف المتغيّرات التطبيقية والمفارقات الثقافية والدافعية. علماً بأن هذه الدراسة لا تعدّ اختباراً، مادام يُقبَل أي جواب صادق[3].

مناقشة نظرية نوتان:

حَدّدت نظرية **نوتان** الفئات المتّصلة بالدافعية كالتالي[4]:

1. إدراك الفرد لنفسه، ورأي الآخرين عنه، من النواحي الفيزيقية والنفسية والاجتماعية.

---

[1] Nuttin J. 1985, Op.cit, pp 118-120.
[2] Nuttin J. 1980, Op.cit, pp 37-44 .
[3] Ibid, 1980, p 169.
[4] Ibid, 1980, pp 41-48.

2. فئة الموضوعات المثيرة للدوافع النّوعية، لدى الجماعات التفاعلية.
3. فئة اللاّتجانس، وتتألفّ من مواضيع اصطناعية أو طبيعية.
4. أما الفئة الرابعة، فتتضمّن موضوعات خاصة، ذات طابع فكري، مثل العلم والأنسقة والمفاهيم العقائدية والفلسفة والدّين والبُنَى السّياسية والاجتماعية والقيم الموضوعية، مثل الحقيقة والحرية والعدالة والاستقلال، والتي تتّسم بالتجريد العلني، إلاّ أنّ تأثيرها بالغ في السلوك الإنساني، بحيث يفضّلها الإنسان على مَصَالِحِهِ الشّخصية. كما أن لفئة النشاط – سواء كان عملاً أو لعباً– دوراً فعّالاً في الدوافع الإنسانية.

يتّضح من استقراء نظرية **نوتان**، أن المنظور المستقبلي، يشكّل بُعداً هاماً للدافعية الإنسانية والسلوك؛ فالإنسان يعمل في حاضرِه لإنجاز مشاريع المستقبل. وكلّما اختفى المنظور الحقيقي، دلّ ذلك على عجز الجماعة، كما هو سائد لدى فئات المُعوَّقين وبعض سكان البلدان المتخلّفة، لعجزهم عن استيعاب إنجاز المشاريع الهامة. ويتطلّب الأمر – لاتّساع المنظور المستقبلي– تعميم النموّ النفسي (السيكولوجي) للشخصية وتوفير الظروف الاقتصادية المناسبة. ويقترح **نوتان** استخدام متغيّرات العمر – لتأثيرها الفعال في جنوح الأحداث – كوسيلة لتنمية المنظور المستقبلي في سياق الدافعية الإنسانية؛ بحيث تتحوّل الحاجات الإنسانية إلى أغراض وأهداف ذات دلالات حافزة ومستقبليّة.

وعلى أساس ما تقدّم، يتبيّن أنّ غياب المنظور المستقبلي ينشأ عن انعدام القدرة العقلية لدى بعض الجماعات، لإدراك وإنجاز مشاريع بنّاءة، كما يحدث للدول النامية التي تعاني من هيمنة الحاجات الأولية على سلوك أفرادها، وهذا الشيء يتطلّب توحيد الرؤية الزمنية والمنظور الاستشرافي، للعمل على تنمية النواحي النفسية والاجتماعية. كما تُحقّق الدينامية (الدَّيْنَمَة) عند **نوتان**، النشاط الموجّه نحو الموضوع. وتمثّل آراءُ وميولُ وعواطف الغير – في إطار الاتّصال الاجتماعي – أحد الدوافع الأساسية لسلوك الفرد، رغبةً من الشخص في ربط علاقات مُتبادلة مع الآخرين، ممّا يؤكّد دور المفهوم العلائقي للسلوك في الدافعيّة، من خلال الطابع الحركي الذي يجمع الفرد بمحيطه، بحيث يشكّل السلوك وظيفة هذه العلاقة؛ في حين

تمثّل الدافعية المظهر الحركي لهذه الوظيفة العلائقية. ويُعدّ هذا التفاعل سِمَة أساسية للدافعية الاجتماعية، خاصة لأن الغَيْرية أو الإيثارية، بنهج السّلوك النافع وجلب الخير للآخرين، قد تظهر متميّزة عن الدافعية. وهكذا تتطوّر الحاجات لتتّخذ أشكالاً مجسّدة للسلوك، بحيث يساهم الإعداد المعرفي Elaboration Cognitive للحالة الدافعية لشخص ما، أثناء موقف معيّن، في تحويل الحاجة إلى مشروع عمل، وهو ما يُعرف بالمعالجة المعرفية للحاجات، ذات المراحل الأربع التالية[1]:

1. تأثير الحالة الدافعية أو الحاجة إلى التوظيف المعرفي.
2. بناء خطة عمل.
3. التأثير الفعّال للتعارض القائم بين تأكيدَيْن جازمَيْن.
4. الانتقال من المشروع إلى الإنجاز.

إن تحديد الأهداف المنشودة، يُمكِّن الطفل من تحويل حاجاته إلى أعمال محسوسة أو مشروع حقيقي، اللهم إلا إذا حالت مقوّمات شخصيته عن تحقيق ذلك. ويتجاوز المنظور المعرفي لدى **نوتان**، التعريف التقليدي للدافعية، على مثال الجوع الذي يوجّه الكائن الحي نحو المسار الذي يقودُه إلى إشباع حاجته، مُرسِّخاً مرامي العِلَلِ على أنها أهداف أو وسائل، لتحلّ محل الأسباب النّفسية لفعل ما، فنصيحة أَبٍ لابنه للقيام بعمل ما، تُعتبر دافعاً لإنجازه؛ مما يؤثّر في السلوك كلّه، ومن ثمَّ يمكن اعتبار المستوى المعرفي محطّة انطلاق مسيرة السلوك، التي تقف عند مرحلة التنفيذ أو الإشباع؛ كما أنه لا يُعتبر الهدف في حد ذاته، المصدر النهائي للدافعية، وإنما يُمثّل النتيجة، ويُجسّد الدينامية التي تساهم بدورها في اقتياد الفرد نحو الغرض المنشود.

إن الحالة الدافعة أو الحاجة، تثير لدى الفرد نشاطاً وتوجّه التوظيف الكلي للعضوية – ومنها النظرة المعرفية – نحو العلاقات العامة، حيث تساهم ذاكرة الفرد وإبداعه في البحث

[1] Nuttin, J. 1985, Op.cit, pp 252-257.

وتنفيذ العمل، ممّا يؤكّد حدوث العملية المعرفية للحاجات، داخل النّظام السلوكي المجسّم للهدف والمشروع، ليستمر التفاعل بينهما داخل النسق التكاملي للكائن الحي، المدعّم بالقدرات الحركية والعقلية. وبذلك يتبيّن مدى اختلاف وتشعّب أصول الدافعية وآثارها على السلوك الإنساني، وإن كان موضوع الدافعية في حاجة إلى المزيد من الدراسات والبحوث، كما أن نظريات الدافعية هي الأخرى في حاجة إلى اختبار مدى صحّة فرضياتها على الواقع العربي.

المراجع المعتمدة

1. Joseph Nuttin , La Motivation, In Paul Fraisse & Jean Piaget, **Traité de Psychologie Expérimentale, Motivation, Émotion et Personnalité**, Puf, Paris, 1968.
2. Joseph Nuttin, **Motivation et Perspectives d'avenir**, Presses Universitaires de Louvain, Belgique, 1980.
3. Josef Nuttin, **Théorie de la Motivation humaine**, Presses Universitaires de France, Paris, 1985.
4. Lieuy, A & Fenouillet, F. **Motivation et Réussitte Scolaire**, Dunod, Paris, 1997.
5. Mucchielli, Alex, **Les Motivations**, Coll.Que sai-je? Puf, Paris, 1992.

مؤلفات جوزيف نوتان

1. **Tâche, réussite et Échec Théorie de la conduite Humaine**, Studia Pschologia, Presses Universitaires de Louvain, Belgique, 1973.
2. **Motivation et Perspectives d'avenir**, Presses Universitaires de Louvain, Belgique, 1980.
3. **Psychanalyse et Conception Spiritualiste de l'Homme**, Studia Pschologia, Presses Universitaires de Louvain, 1980.
4. **La Structure de la personnalité**, Presses Universitaires de France, Paris, 1980.
5. **Théorie de la Motivation humaine**, Presses Universitaires de France, Paris, 1985.
6. **Théorie de la motivation Humaine, du besoin au projet d'action**, Puf, Paris, 4eme Édition, 1996.